لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟!!

جدلية النهضة والتخلف في الفكر الاسلامي

(دراسة فكرية مقارنة)

القسم الرابع والأخير

سعد صهيب الزيباري
saad76@yahoo.com

نعود هنا إلى السؤال الذي طرحناه في البداية بعد أن تحدثنا عن إمكانيات النهضة من منظور بعض المفكرين والمنظرين والحركيين الإسلاميين، هذا السؤال الجدلي الذي ما فتئ مطروحا خلال أكثر من قرن بصور شتى وأشكال متعددة: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟! ولماذا تأخر النصر الذي ينتشل المسلمين من وهدة التخلف، ويمهد لسيادة الأخوة والعدالة والتسامح؟ ولإضاءة هذه المسألة يمكن أن نختزل الجواب في الأبعاد التالية: النصر حقيقة ثابتة أكدها القرآن كثيرا، وهو منحة ربانية ونعمة إلهية تمنح لأولئك المسلمين الذي بلغوا مستوى النصر.. قال تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ فالنصر إذن وعد من الله سبحانه وتعالى، ثم بين من الذي ينصره ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض ﴾ أي: الذين ينصرون دينه ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فذكر أربعة أشياء: إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه من أسباب التمكين في الأرض.. وبين القرآن الكريم معادلة النصر في قوله تعالى: ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ﴾ أي أن الجزاء ونتائجه مشروط بالعمل ومقدماته، ولا يعني أن الباري جل وعلا في حاجة إلى نصر من عند البشر، فالنصر الذي يريده الباري تبارك وتعالى هو أن ننتصر على نفوسنا؛ ونتغلب في ميدان أهوائنا، عندها سيفرح المؤمنون بالنصر المبين، فالنصر حقيقة ثابتة سنعيشه واقعا يوما ما، ولكن بعد أن ندفع ضريبة النصر وتكاليفه الثقيلة، فمتى ما بلغت نفوسنا المستوى الإيماني المطلوب؛ أزفت ساعة النصر الموعود.

فنحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ﴾ فهو شرط. وجزاء أو مقدمة ونتيجة.. فغزوة بدر مثلا من أولها وآخرها تدبير إلهي أنفذ الله وعده للمسلمين، لأنهم أسلفوا من الجهد الصادق ما يوجب هذا الجزاء..

فالمسلمون لم يدخلوا معركة واحدة مع العدو من قبل.. ولكنهم دخلوا معارك هائلة مع نفوسهم وأهوائهم، وموروثاتهم في العقائد والعادات.. وتحملوا من المشقات، وبذلوا من التضحيات في مدى أربعة عشر عاما وأكثر– ثلاثة عشر بمكة، وعاما ونصف عام بالمدينة..) (أنظر: يوم الفرقان.. غزوة بدر الكبرى، البهي الخولي، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨٢م ص١٠–١٢.)

ان تحقيق النصر على أيدي المسلمين، رهن بنهوض الأمة على استخلاص العوامل الكفيلة لتحقيق النصر.. والعمل على تهيئة الأسباب المفضية للنصر.. والأخذ بأسباب ومقتضيات هذه الآية القرآنية الكريمة: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ الحج/٤٠–٤١.

وقد وعد جل وعلا المؤمنين بالنصر.. وذلك في كتابه العزيز: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ النور/٥٥ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج/٤٠ ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد/٧

عوامل نصر المؤمنين ومعوقاته:

إن سنة الله في نصر المؤمنين أهل الحق على مخالفيهم أهل الباطل، هذه السنة الإلهية إنما تتحقق في واقع الناس إذا هيأ المؤمنون في أنفسهم وفي جمعهم عوامل النصر التي أرشد إليها الإسلام وأمر بها الله تعالى، وأبعدوا عن أنفسهم وعن جمعهم عوامل الفشل ومعوقات النصر، فما هي عوامل النصر الواجب على المؤمنين تحصيلها، وما هي معوقات النصر الواجب عليهم إبعادها عن أنفسهم وجمعهم؟ هذا ما نبينه في الفقرات التالية مبتدئين أولا بعوامل النصر:

أولا: الإيمان: من عوامل النصر التي مضت بها سنة الله في النصر؛ وأخبرنا بها الله جل جلاله (الإيمان)، قال تعالى وهو أصدق القائلين :﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ الروم/٤٧

قال صاحب تفسير المنار في هذه الآية: (وهي نص في تعليل النصر بالإيمان) (أنظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، ص٥٤.)

ثانيا: من عوامل النصر تقوى الله:

قال تعالى: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ آل عمران/١٢٤-١٢٥.

فمدد الملائكة للمؤمنين كان بسبب تقواهم؛ لأن صبرهم من جملة تقواهم؛ لأن التقوى كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: (التقوى تجمع فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه). نفس المصدر، ص٥٨-٥٩.

ثالثا: من عوامل النصر نصرة الدين:

ومن عوامل النصر التي جعلها الله تعالى في سنته في نصر المؤمنين وهم يدافعون الباطل وأهله، قيامهم بنصرة الدين، الإسلام، بكل ما أوتوا من قوة قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ محمد/٧.

رابعا: من عوامل النصر: الجهاد وإعداد القوة:

الجهاد بالمال والنفس من فرائض الإسلام، ولكنه فريضة منسية من قبل أكثر المسلمين، مع أن الجهاد هو طريق النصر ووسيلة العز واظهار دين الله ومحق الباطل وأهله ونوال رضوان الله.. قال تعالى: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ البقرة/٢١٦ وقال تعالى: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم..﴾ الأنفال/٦٠ .. نفس المصدر، ص٦٣.

عوائق النصر: وسنة الله في نصر المؤمنين تستلزم تجنبهم عوائق النصر ؛ ومن هذه العوائق:

أولا: التنازع والإختلاف: قال تعالى: ﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ الأنفال/٤٥.

ثانيا: الغرور والرياء: ومن معوقات النصر الغرور والخروج للقتال على وجه البطر والفخر والرياء.. قال تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ﴾ الأنفال/ ٤٦.

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يحدد عوامل النصر:

كتب عمر بن الخطاب الخليفة الراشد (رضي الله عنه) إلى سعد بن أبي وقاص حين وجهه إلى فتح فارس عهدا هذا نصه « أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليس كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لن نغلبهم بقوتنا..

فاعلموا أن عليكم في سركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منه، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا ان عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني اسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا..

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم.. وأسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم.. » (أنظر: العقد الفريد ٤٠/١ في كتاب (رسائل الفاروق عمر بن الخطاب) جمع وتخريج عبداللطيف اسماعيل الجبوري، الشركة العراقية للطباعة الفنية، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، ص٧٤-٧٥.)

من هدي رسول الله (ﷺ) في تحذير المؤمنين:

قال رسول الله (ﷺ): (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ؟ قال (ﷺ): بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم. وليقذفن في قلوبكم الوهن) قال قائل: يارسول الله وما الوهن قال: حب الدنيا وكراهية الموت) الحديث رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة عن ثوبان مرفوعا بهذا اللفظ.

كما يتحقق النصر بتأسيس قاعدة مؤمنة تدعو لدين الله في السر والعلن، لا تلوي على شيء ولا تلتفت لشيء ولا تستنكف من شيء.. وان تعرضت لشظف العيش والأذى، ولا تخشى في الله لومة لائم، ولا تعطي الدنية في دينها، تستعذب الموت في سبيل الله، وتجاهد لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، لا تساوم على عقيدتها ولا تهادن على مبادئها، ولا ترضى بالمبادئ الوافدة بدلا عنها مهما كانت النتائج.. ولا توظف الجهاد لأغراض سياسية تنتهي بانتهاء أغراضها.. وتسبق ذلك كله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة.. والأخذ بكل الأساليب الحكيمة التي ثبت نجاحها في ميدان العمل الدعوي المعاصر على مدى عقدين من الزمان، وتوظف الوسائل التربوية العقلانية في تحقيق ذلك الهدف المنشود، وان ذاكرة التاريخ مليئة بالصفحات المشرقة التي سجلها الدعاة الى الله والمجاهدون في سبيله..

ويتحقق النصر حين يكون النهضة والإصلاح باسم الاسلام، نظرا لأن كل الشعارات واللافتات التي رفعت لتحديث الشعوب الاسلامية وتحريرها من ربقة الاستعمار والانظمة الدكتاتورية منيت بالفشل الذريع، لأنها لم تعبر عن صميم توجهات وتصورات المجتمع الإسلامي، ومتطلباتها وآمالها في الحرية والإستقلال والعيش بأمان في ظل المنهج القرآني.. وحاولت تلك التيارات العنصرية واليسارية انتزاع مفهوم الاسلامية عن الجهاد واسقاط الشحنات الروحية عنه.. وبذلك أفرغ

مفهوم الجهاد عن مضمونه.. بعد ان وظفته تيارات قوموية أو يسارية لأغراضها السياسية.. وأبعد الاسلام عن قضية الأمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. وأصبحت تحكمنا مناهج وضعية في السياسة والإقتصاد والأسرة.. بعد الاستقلال الشكلي للاستعمار نتيجة للمقاومة العنيفة التي أبدتها الشعوب المسلمة، التي لم ترض ان تحكمها أنظمة دخيلة تريد النيل من الإسلام والمسلمين، وتسعى للسيطرة على ثرواتهم وامتصاص مواردهم والتحكم في مقدراتهم الإقتصادية، والعمل على توجيه عقولهم بوسائلها الإعلامية والإعلانية والتعليمية، التي قامت بهدف تدجين عقل الشباب المسلم، وإزاحته عن قيمه ومعتقداته ومفاهيمه وأصالته، وطمس هويته الإسلامية، وتغذيته بمفاهيم وهويات متضاربة لا تمت إلى دينه بصلة تذكر.. وبعد إجلاء المستعمر تسلمت مقاليد السلطة السياسية والثقافية نخب علمانية صنعها المستعمر لتمرير أهدافه في السيطرة والإستعباد، والتحكم بمقدرات الدول الإقتصادية ومواردها الطبيعية.. وهكذا أصبح المسلم غريبا في وطنه بعد ان تحكمت فيه قوانين وضعية تروج لمفاهيم غربية لائكية لا غائية.. وبعد طرد الاستعمار العسكري من بلاد الإسلام والمسلمين بعد أن قدم المسلمون المجاهدون تضحيات جبارة، انتزع منهم ثمرة جهودهم وجهادهم عملاء صنعهم الغربيون على أعينهم وبأيديهم.. وهكذا خرج المستعمر الغربي عسكريا؛ ولكنه أقام فكريا وسياسيا واقتصاديا، يعمل بدلا عنهم حكام وقعوا في فخ العمالة، ودفعوا بلدانهم إلى مطب الاستتباع الفكري والثقافي والحضاري..

وبناء على ما سبق يجب تحرير المفاهيم الإسلامية من كل صبغة ايديولوجية لا دينية وعنصرية.. ومن ثم تحديد المفهومات قرآنيا واسلاميا.. لأن تطعيم المفهوم بعناصر قومية، أو تلوينه بايديولوجيات لا دينية.. ينتزع عن المفهوم فعاليته وقوته وديناميته الحركية.. كما يضعف من قوة المفهوم تفريغه من اسلاميته.. ولتحقيق هذا المنزع؛ (تم استبعاد آيات معينة من القرآن الكريم عن التداول، يتقن الذين ألفوا تحريف الكلم عن مواضعه اختيارها ورصدها، لتفريغ ما في القرآن من قدرة وفاعلية؛ ودفع المسلمين إلى قراءته عضين أعضاء مفرقة وأجزاء بحيث لا تكتشف منهجيته، ولا سنن نظمه ولا قواعد أسلوبه، ليبقى المسلمون في تخلفهم، ويبقى القرآن المجيد كتابا لأمواتهم لا لأحيائهم؛ ولآخرتهم لا لدنياهم..) (أنظر: لماذا إسلامية المعرفة، د. طه جابر العلواني، ص٢٧)

الإنطلاقة الحضارية للأمة الإسلامية رهن التحول من فلك الأشياء إلى فلك الأفكار:

فلسفة التاريخ تقوم على مبدأين اثنين هما:

الأول؛ أن كل مجتمع يتكون من ثلاث مكونات هي: الأفكار، والأشخاص، والأشياء، وأن المجتمع يكون في أوج صحته وعافيته حين يدور الأشخاص والأشياء في فلك الأفكار الصائبة. ولكن المرض يصيب المجتمع حين تدور الأفكار والأشياء في فلك الأشخاص، وينتهي المجتمع إلى حالة الوفاة حين تدور الأفكار والأشخاص في فلك الأشياء.

والثاني؛ أن السلوك الإنساني هو قصد وحركة، وأن القصد يتجسد في الفكر والإرادة، والحركة تتجسد في الممارسات العملية. وهذه المكونات السلوكية تنتظم في حلقات ثلاث يولد بعضها بعضا، فتبدأ الحلقة الأولى في ميدان الفكر، ثم تليها الحلقة الثانية في ميدان الإرادة، إلى أن تنتهي الحلقة الثالثة في الممارسات العملية خارج الجسد البشري.

وانطلاقا من هذا التصور تبدأ الظواهر الاجتماعية بالمقررات الفكرية التي تولد الغايات، ثم الاتجاهات النفسية التي توجه الإرادات، إلى أن تنتهي بالممارسات العملية التي تفرز الإنجازات المتقدمة أو المتخلفة في ميادين الحياة المختلفة.(أنظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ماجد عرسان الكيلاني)

أهمية البعد الفكري في مشروع النهوض الحضاري:

إن المشروع الإسلامي لم يعط البعد الفكري من الإهتمام ما يستحقه، وذلك من أسباب عجزه عن بلوغ الهدف، واستمرار الأمراض الفكرية الفتاكة مثل: تحكم عقلية التقليد الجماعي، والغفلة عن السنن، والتغافل عن عالمية الإسلام أو إساءة فهمها... ومن هنا ظهرت الحاجة إلى إصلاح مناهج الفكر في محاولة لإستدراك المشروع الإسلامي المطروح واستكماله.. إن المشروع الفكري الثقافي يحاول معالجة الأسباب الذاتية التي أدت إلى إصابة المشروعات السابقة؛ وإفقادها قدرتها على بلوغ الأبعاد المطلوبة، حيث أنه يأخذ بعين الإعتبار المنطلقات الإسلامية الأساسية والنظرة الشمولية، وتحقيق التوازن والوسطية... وهذا لا يعني بحال من الأحوال الإستغناء أو العدول أو القفز فوق رصيد المشروعات الفكرية والإصلاحية السابقة، بل لا بد من تقويمها للإفادة من الجوانب الإيجابية فيها، والإفادة أيضا من التجارب الميدانية للمشروعات الإسلامية النهضوية المتنوعة. (أنظر: لماذا إسلامية المعرفة؟ د. طه جابر العلواني، نفس المصدر، ص٢٤-٢٥.)

والقرآن الكريم يتحدث عن سنن التغيير التي توجه الظواهر الاجتماعية، فهو يشير إلى التغيير الاجتماعي الإيجابي عند قوله تعالى:﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ الرعد/١١

وهو يشير إلى التغيير الاجتماعي السلبي عند قوله تعالى:

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ الأنفال/٥٣

ويشير القرآن الكريم إلى أن التغيير لا يكون مثمرا إلا إذا وجهته قوانين التغيير نفسه:

وأول هذه القوانين: أن يبدأ التغيير في محتويات النفس ثم يعقبه التغيير في الميادين الاجتماعية والسياسية والعسكرية والإدارية والقضائية وسائر ميادين الحياة الخارجية.

ومحتويات الأنفس ذات معنى واسع يشمل الأفكار والقيم والثقافة والإتجاهات والعادات والتقاليد؛ كما يشمل التصور عن المنشأ والكون والحياة والمصير..

والقانون الثاني: إن التغيير إلى الأفضل أو الأسوأ لا يحدث إلا إذا قام (القوم) مجتمعين وليس (الأفراد) بتغيير ما بأنفسهم، وإن آثار هذا التغيير الجماعي تنعكس على ما بالقوم من أحوال سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية وبنفس القدر الذي يحدث تغيير ما بالأنفس.

والقانون الثالث: إن التغيير المثمر يحدث حين يبدأ (القوم) بقسطهم من تغيير ما بأنفسهم، فإذا أحسنوا هذا التغيير التربوي والفكري تبعه التغيير المثمر في مجالات الاقتصاد والسياسة والعسكرية والاجتماع وغير ذلك. (أنظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ماجد عرسان الكيلاني)

النتائج التي توصلت اليها الدراسة:

إن السؤال الجدلي الذي شغل المسلمين كثيرا كان يتحدد في العنوان التالي؛ لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم.. وأخذ حيزا واسعا في حقل الفكر الإسلامي، وقد أشار بعضهم إلى التحديات الخارجية متمثلة في الإستعمار الغربي/الأوروبي، أو النخب العلمانية التي استحوذت على السلطة بدعم من قوى خارجية غربية، ولقد برزت في السياق العربي الإسلامي تيارات فكرية منها: التيار الإسلامي بكافة أطرافه واتجاهاته، والتيار القومي بكل ألوانه وأطيافه، والتيار الإشتراكي بشتى أشكاله ومشاربه، والتيار الليبرالي بكل نظائره وأشباهه..

وفي ظل التحديات التي نواجهها في هذا السياق التاريخي الراهن؛ وجدت الأمة نفسها في حاجة إلى التذرع باستخدام البدائل الغربية، وإن هذه المحاولات الرامية إلى النهضة والتجديد حالت دون بلوغ السقف المعرفي للحضارة المعاصرة، ولذا باءت تلك المحاولات بالإخفاق؛ لأن تلك البدائل والمشاريع لم تكن في مستوى التحديات العالمية، وإن كانت الكثير من الدراسات ركزت على العامل الداخلي أكثر من الخارجي في تفاقم الأزمة وافتعالها.. ومقولات (أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم)، و(نظرية القابلية للإستعمار)، و(أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم في أرضكم)، أوضح مثال على هذا المنزع الفكري، أما البديل الإسلامي فلأنه لم يتح له المجال الكافي لممارسة فعالياته، واستئناف دوره الحضاري المنشود، وطرح مشروعه المعرفي الشامل، وأداء دوره الفاعل في استئناف المسيرة الحضارية في أرضه ووطنه، والتي حالت دون تقديم مشروعه التغييري عوائق وعقبات، وأثيرت ضده شبهات وأباطيل، وألقي بدعاته في غياهب السجون، وألصقت بهم شتى التهم والنعوت، مما تعثرت إمكانات التأسيس والمعالجة لدى التيار الإسلامي، والمجال الذي أعطته له لم يكن مشجعا على طرح خياراته وطروحاته في التعبير والتغيير؛ والمواجهة السلمية..

إن مواجهة التحديات يكمن في تشخيص المعضلات ومن ثم توصيف إمكانات المعالجة، بشرط أن تستجيب لحاجات المرحلة، وان الكثير من الجهود الفكرية للتيار الإسلامي ضاعت في مواجهة التيار التغريبي الذي كان ينادي بضرورة الإقتباس من حضارة الغرب الحديثة بحلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب، وكان دعاة التغريب يتهمون التيار الإسلامي؛ بأنه يمثل عودة إلى الماضي، مع أن التيار التغريبي كان يمثل عودة إلى ماضي الغرب اليوناني–الروماني، وليس حاضر الغرب المتقدم..

لقد ظهر لنا من خلال آراء المفكرين وجود الخلل في حياة الأمة الإسلامية، وسيادة روح التخلف في كل القطاعات الحيوية في المجتمعات الإسلامية، وضعف الجانب الروحي والإيماني، وكذلك وقوع الهزيمة النفسية بين معظم الشرائح المجتمعية، واضطراب النسيج الفكري والثقافي، وتراجع دور العلم والعلماء والثقافة والمثقفين في المركز الإجتماعي، والإستبداد السياسي والضعف الإجتماعي، ومن ثم فإن هناك اتفاقا بين المفكرين على معالجة هذه المظاهر من خلال التأكيد على دور العامل الروحي والإيماني، والتأكيد على التربية والتعليم، ومنح الدور الحقيقي للعلم والعلماء، ومواجهة التسلط والإستبداد، وتوفير اجواء الحرية والمساواة والعدالة، وذلك من خلال برامج عمل تنزع إلى نهضة حقيقية وليست نظرية، وعدم الإكتفاء بالمشاريع الهيكلية، وإهمال المشروع الإنساني، أو بالأحرى التنمية الانسانية، ومواكبة روح العصر لا من خلال القفز على الانجازات الحضارية والفكرية والثقافية، وإنما من خلال هضم المنتوج الحضاري واستيعابه، ومن ثم توظيفه وبلورته بما يوافق البيئة الفكرية والثقافية للبلد المستورد، وبعث الأمل إلى النفوس التي استمرأت الياس وارتاحت إلى الهزيمة، ومن ثم شق الطريق نحو حضارة انسانية راقية..

« إن تاريخنا قد حفل بالكثير من حركات الاصلاح وقيادات التغيير، فهناك عمر بن عبدالعزيز، وهناك الامام الشافعي، والامام أحمد بن حنبل، وشيخ الاسلام ابن تيمية، وهناك المهدي بن تومرت، وحسن البنا وعدد كبير منهم صلاح الدين الايوبي، وهؤلاء المصلحون أو دعاة الاصلاح تنوعت أدوارهم فمنهم من قام بدور اجتهادي، ومنهم من قام بدور جهادي، وكل كان على ثغرة، وكل قد أدى واجبا من الواجبات، ويعتبر صلاح الدين من اكثر الأسماء بين القيادات الاسلامية التي كان لها نصيب في عمليات الإصلاح والتغيير في تاريخ هذه الأمة، ولقد بلغ من إعجاب الناس بصلاح الدين أن نسب إليه شخصيا فضل تطهير المسجد الأقصى، بإعتباره البطل الذي على يديه تم ذلك، ونسي أو لم يبرز بشكل مناسب دور من سبقوه أو عملوا معه أو آزروه.

ولذلك كان لا بد من وضع الأمور في نصابها وبيان دور الأمة ودور الفرد من خلال الأمة في عملية الاصلاح والتغيير، لكي لا تكسل الأمة ولا تفتر ولا تتوانى ولا تتوهم أن مهمتها تنحصر في انتظار البطل الأسطوري! (...) فهناك إصلاح فكري ولا شك قد سبق عملية تحرير القدس، وهناك

اصلاح تربوي وتعليمي واسع النطاق سبق ذلك، وهناك إصلاحات سياسية وإدارية كثيرة قد وقعت ». (أنظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د. ماجد عرسان الكيلاني، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الامريكية، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ– ١٩٩٥م. ص١٠–١١)

لقد ظهرت الكثير من الكتب والدراسات التي تعالج الأزمة من خلال آيديولوجيات تغريبية تحت عناوين التحديث والنهضة والتجديد، والتي اعتمدت في جل طروحاتها على المناهج الغربية؛ وطرحت من خلالها مشاريع فكرية وثقافية؛ مساهمة منها في بث الوعي الثقافي في عمق المجتمعات الإسلامية، التي تترنح تحت أنظمة شمولية، ولكن هذه المشاريع قد أثبتت فشلها لأنها انطلقت من وحي أفكار تغريبية؛ وحاولت معالجة الأزمة من خلال وسائل وأدوات منهجية قائمة على مصادرة الموروث الحضاري للأمة، وطمس انتماءاتها التاريخية، ونبذ تصوراتها القيمية، وإحداث القطيعة المعرفية مع مخزون الذاكرة التاريخية للأمة الإسلامية، والدعوة لمنظومة قيمية مغايرة، وفتح القنوات العلمية والإعلامية لتنساب مضامينها إلى فضاءاتنا الفكرية والثقافية؛ والتي تنتمي لسياقات وتجذرات تاريخية انتزعت من خارج أنساقنا المعرفية والعقدية، وهكذا تصورت أن نهضة الأمة وتجاوز ازمتها الحضارية، تتحقق من خلال زحزحة القيم والتصورات الإسلامية من قلب حركة المجتمع، وكان ذلك من وراء تكريس حالة التبعية للغرب، وتعزيز مجالات الإخفاق والتراجع الحضاري، ومن ثم انصبت محاولاتها في تشريح العقل الإسلامي الذي لم يعد قادرا بزعمها على هضم واستيعاب ثقافة الآخر التحديثية، وهذا في منظورها المحصلة النهائية لتخلف المجتمعات الإسلامية.. ومن هذا المنطلق ظهر الكثير من المثقفين بمشاريعهم التغييرية، والتي بدأت على شكل دراسات نقدية للتراث الإسلامي بهدف غربلته واستلهام تجلياته، وإن كانت في الأساس محاولات تستهدف خنق التراث الإسلامي، ومن ثم التمهيد لمصادرة ومحاصرة المصادر الأصلية التي تعتمد عليها المنظومة الإسلامية في كل فاعليتها الفكرية والتشريعية والعقدية..

(فأغلب ما أنتجته الحداثة المستعارة لم يغن واقع الإنسان العادي، وإنما عزز سلطة القمع ضده، من خلال تعزيز السلطة المعرفية للنخب المثقفة، التي تحولت إلى سلطة قمع لثقافة الجمهور ولمعتقده الديني وهويته، وعبر تعزيز السلطة السياسية للنخب الحاكمة، التي تحولت إلى آلة بطش للجمهور تنتهك كرامة الإنسان؛ وتؤكد هامشيته.) (أنظر: النخبة ومشروع الحداثة الغربي، خالد توفيق/ مجلة (الوحدة) العدد (١٩٣) ١٤١٧هـ–١٩٩٦م، ص٣٩.)

ومحصلة الواقع الراهن في الساحة العربية جاءت لتؤكد كما يقول عبدالإله بلقزيز : « ان تلك الحداثة أخفقت في الفكر كما في المجتمع، لأنها نشأت مشدودة إلى مرجعية خارج تربتها الفكرية والإجتماعية، وخارج تاريخه الخاص.. »

ومصير المثقف في خط هذه الحداثة لا يختلف عن أي مستهلك آخر، فهو يتعاطى الثقافة كسلعة: « فمثلما يستهلك التقني العربي أحدث التقنيات الوافدة من أميركا واوروبا واليابان، يستهلك المثقف العربي الحداثي أفكار الغرب البرجوازي والماركسي ونظمه المنتزعة انتزاعا من محيطها الثقافي والإجتماعي، وإن كليهما لا يعيشان هذه الثقافة من الداخل..» (انظر: عبدالإله بلقزيز، (إشكالية المرجع)، ص١٤٥. في: النخبة ومشروع الحداثة الغربي، نفس المصدر السابق، ص٤٠.)

(إن القول بتغريب العالم يفضي إلى (مطابقة) تحول دون الوصول إلى كشف الذات ونقدها، والإنصهار في أفق مغاير لا يوفر شروطا لممارسة فعل الحياة، لأنه يتجاوز معرفته لذاته، بالإمتثال لنموذج مختلف، يصعب عليه أن يوفر الشروط الكفوءة للإحساس بالإنتماء، الإنتماء الحقيقي، وليس الإرتماء في هوة الإنغلاق والتعصب، والبديل الذي نراه مناسبا، هو تطوير عوامل (اختلاف) لا تؤدي إلى الإنقطاع عن (الآخر) والغرب خاصة.. اختلاف يبث الحيوية والصيرورة في كل العوامل التي تشكل عناصر التكوين الذاتي للهوية، (اختلاف) نقدي يضع الحوار محل السجال، والتفاعل الخصب محل الإنغلاق، والتأثر الشفاف محل التمركز الكثيف..) (أنظر: المركزية الغربية.. إشكالية التكون والتمركز حول الذات، د. عبدالله إبراهيم، المركز الثقافي العربي– بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص٣٦.)

ان الكثير من محاولات الإصلاح والتجديد والتغيير التي سلكتها الأمة قد عالجت أمورا وفاتتها أمور، وأن التجديد والإصلاح لم يأخذا مداهما الشامل ليحيطا بأسباب الأزمة المختلفة، ويهيئا الأمة للخروج التام منها. فانشغلت الكثير من حركات الإصلاح بمعالجة مظاهر الأزمة وما تنعكس عليه من آثار يومية مباشرة. أما جذورها ومنابعها فلم تأخذ حظها من البحث والدراسة ثم المعالجة، وذلك لا يعيب تلك المحاولات ولا يقلل من شأن ما قدمته للأمة من خدمات ومكاسب، وفي مقدمتها المحافظة على هوية الأمة وانتمائها. ومن هنا تبرز الحاجة واضحة إلى محاولة اصلاحية معرفية منهجية؛ تستطيع رصد سائر أسباب الأزمة ومنابعها إضافة إلى آثارها وانعكاساتها، وتحاول أن تقدم للأمة منهاجا سليما؛ لإعادة البناء قائما على ذات الدعائم الأولى؛ التي عليها قام بناء حضارة الإسلام في دورته الحضارية الأولى.(أنظر: د. طه جابر العلواني، لماذا إسلامية المعرفة؟ مجلة (إسلامية المعرفة)، العدد (الأول) السنة الأولى ١٤١٦هـ١٩٩٥م، ص١٨.)

ان التحليل الدقيق لمشكل المأزق التاريخي أو إشكالية النهضة والتخلف لا يمكن فهمها في إطار فكري بحت، ولا يعقل حصرها في المسألة الفكرية على الرغم من الدور الكبير الذي يلعبه الفكر في تشكيل وعي النهضة أو بالأحرى الشعور بالأزمة الخانقة التي تأخذ بتلافيف المجتمع.. ان ايديولوجيا الحداثة التي تدعي أنها السبيل الوحيد للخروج من مطبات التخلف والجمود تجهل التركيبة الحضارية، وتدشن قطيعة معرفية مع موروث الذاكرة التاريخية للمجتمع، وهذا يفسر عدم إمكانية تغيير المجتمع من خلال فرض ايديولوجية انسابت إلى فضاءاتنا الفكرية عبر أنساق وسياقات مغايرة.. فمشكل التقدم لا

يعالج بمجرد اقتباس نظريات وطروحات ومركبات ذهنية وتصورات ايديولوجية ومثاليات طوباوية تم نقلها واستحضارها من خارج لحظتنا التاريخية..

ان اشكالية النهضة في الوطن العربي والإسلامي جرى فهمها من قبل بعض النخب الفكرية التي تلقت ثقافة تغريبية من خارج الإطار الفكري والحضاري للأمة الإسلامية؛ وهي لذلك تعيش حالة اغتراب وتمزق فكري لتضارب القيم التي تحملها مع ثقافة المجتمع.. وهذا الفصام الفكري جرى تعميمه من خلال قنوات أحادية الجانب، كرست لغة تخاطب ثنائية فيما بين النخب الثقافية فحسب؛ التي تتداول فيما بينها ثقافة خطابية محكمة؛ لم تلامس الوعي المجتمعي إلا في الفترة الأخيرة بعدما ثبت عدم جدوى الأطروحات بمنأى عن المجتمع وفعالياته..

« إن الإغتراب الثقافي الذي يتجلى لدى الأقليات الإستراتيجية المسيطرة في بلدان العالم الثالث، هو المسؤول عن ديمومة التخلف وترسيخه، وعن نشر التبعية وفشل التنمية، وعن نزيف الثروات وفشل الثورات، وعن الإستغلال والنهب السائدين لصالح مراكز العالم المصنّع..» (أنظر: الخطاب العربي المعاصر، فادي إسماعيل، المصدر السابق، ص١٥٩.)

والجدير بالملاحظة ان السؤال التاريخي في مفهوم الحداثة والتقدم دفع المفكرين إلى دراسة قضايا التخلف والنهضة، ولكن من خارج الأطر الفكرية والثقافية والإجتماعية، فإشكالية النهضة تبلورت من فكرة تطالب بضرورة تكريس عمليات النهضة في الوعي المجتمعي أو بالأحرى تكديس المنتجات الحداثية بهدف التخلص من تداعيات التخلف والجمود المعرفي.. في محاولة لإنهاض المجتمع من كبوته الحضارية واخفاقاته المدنية.. وهكذا بدأت النهضة في محاكاة ومحاكمة الموروث الحضاري، وإعادة تشغيله وتفعيله في البيئة المجتمعية المتآكلة، نتيجة لعوامل كثيرة ساهم البحث في إضاءة الكثير من جوانبها.. أما في الجانب الآخر فجرى فهم التراث على أنه العائق أمام التقدم والنهضة..

ولهذا نهض فئة من المفكرين العلمانيين إلى استبعاده وتهميشه؛ ومن ثم العمل على إزاحته.. واصبح التراث في منظور البعض القيد الذي يعيق مسيرة النهضة والتقدم.. ومع ذلك لم نشهد نهضة او حداثة مع كل هذه المحاولات الرامية لإزاحة التراث، كما توقعها العلمانيون حين نددوا بالتراث الحضاري للأمة.. ولكن ما تحقق على أرض الواقع كان على العكس من ذلك تماما، فكل الشعارات المرفوعة أضحت لونا من الترف الفكري الذي يشتغل فيه المفكرون؛ لتوهيم المجتمع بأدوارهم الفكرية والثقافية التي تتميز بالكثافة والتضخم والفاعلية الذهنية.. فلقد ثبت تاريخيا أن كل ما جرى في محاولات التحديث كان تكريسا لسلطة النخبة على المجتمع المغلوب على أمره، فوقع المجتمع نتيجة لذلك بين مطرقة السلطة السياسية وسندان التخلف والنخبة الثقافية، والتي كانت من العوائق في تحقيق النهضة المنشودة.. والحداثة الموهومة التي بشرت بها النخب العلمانية من خلال المجتمع المدني والدولة الحديثة والعقلانية والعلمانية...الخ كانت من المفاهيم التي لم تخرج من اطار التنظير والطرح المفاهيمي.. هذه الحداثة كانت تعني حداثة الدولة والنخبة، والإستئثار بثروات الأكثرية المهمشة بين فكي كماشة النخبة السياسية والنخبة الثقافية.. وان الحداثة والتحديث التي تسعى إلى تحقيقها شعوب العالم الثالث هي في الأغلب باستثناء بعض الدول كماليزيا مثلا حداثة شكلية ذهنية.. ومثل هذه الحداثة لا تساهم إلا في تغليف التخلف وتجويد التدني والعودة إلى مرحلة ماقبل التخلف.. إنها بحسب عبارة (عبدالحميد البكوش) مرحلة تترهل فيها إرادة العقل ويزدهر نشاط الكلام.. لقد تحولت الحداثة إلى حداثة للتأخر، وتكيف مع التخلف، ونهضة نحو التبعية والإستلحاق الحضاري للغرب.. والسؤال المطروح: ما الجدوى من مفاهيم تتداول بين المثقفين بعيداً عن التطبيق والممارسة العملية.. فالتغيير لا يتحقق من خلال مقولات ومفاهيم؛ بمنأى عن دراسة النسيج المجتمعي.. فالحداثة لا تقدم اجوبة جاهزة عن مشكلات المجتمع المتخلف.. فالحداثة في منظور الفكر العلماني أصبحت الحل السحري لتطوير المجتمع وتغيير بنيته الفكرية وتركيبته العقلانية والثقافية..

ان النهضة الحضارية تقوم على اساس الموروث الحضاري للأمة، فالتقدم يتم عندما تتحقق قيم المجتمع/الأمة وثقافتها الخاصة وتوازناتها المادية والروحية..

(إن الإجابات التي طرحت على تحديات عصر السيل الغربي الجارف وزمنه الحضاري منذ القرن الماضي من قبل مفكري ما سمي بعصر النهضة؛ ومنذ تكون العالم العربي الحديث، لا بد أن يعاد فحصها. لا بد من البحث المبدع عن نموذج للتغيير يختلف عن نموذج الغرب، ابتداءً من عصر نهضته، ثم ثورته الصناعية فثورته العلمية والتكنولوجية، وكل ما صاحب هذه (الثورات) من تغيير في العلاقات والنظم والقيم المجتمعية.. ذلك ان هذا النموذج والذي تبنته النخب الحديثة في طروحاتها ومشاريعها، هو نموذج غير صالح ومرغوب لدينا، لأنه لا يتسق مع المبادئ الحاكمة والقيم الأساسية لحضارة المجتمع/الأمة التي ننتمي إليها والتي لا تضع الإنسان في مركز الكون، ولا ترى الحياة الدنيا منفصلة عن الآخرة، ولاترى الحاجات الكمالية منفصلة عن الحاجات الروحية.. (أنظر: الخطاب العربي المعاصر، فادي إسماعيل، المصدر السابق، ص١٦٠-١٦١.)

(ان مضمون النهضة الحضارية التي نطمح أن يسير نحوها المجتمع-الأمة في تواصله مع منطق الإستمرارية التاريخي-الحضاري ومع مبادئها الحاكمة لسيرها نحو تحرير الإنسان من العبودية لكافة الأصنام السياسية أو الإجتماعية أو الإقتصادية أو الفكرية.. دون التحرير، دون الحرية، دون القضاء على التبعية لا يمكن للتقدم والحداثة أن يكونا صالحين ونافعين..) ❐